المحاضرة الثالثة: الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط وبروز الجزائر كحاضرة إسلامية

شكّل الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط، الذي يوافق المجال الجغرافي للجزائر الحالية، منعطفًا حاسمًا في تاريخ المنطقة، إذ نقلها من مرحلة التبعية للإمبراطورية البيزنطية وما رافقها من انقسامات سياسية وقبلية إلى مرحلة جديدة أصبحت فيها جزءًا من الدولة الإسلامية، ولم يكن هذا التحول مجرد توسع عسكري، بل كان بداية عملية حضارية عميقة شملت انتشار العقيدة الإسلامية واللغة العربية، وإعادة تنظيم المجال السياسي والإداري، وظهور مراكز حضرية وعلمية كان لها أثر بالغ في تاريخ المغرب الإسلامي.

وقد امتدت عملية الفتح على مدى عدة عقود، بسبب المقاومة التي أبداها البيزنطيون وبعض القبائل الأمازيغية، قبل أن تستقر الأوضاع في أواخر القرن الأول الهجري(السابع الميلادي). ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب الأوسط أحد أهم أقاليم الغرب الإسلامي، وأسهم في بناء الحضارة الإسلامية سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا.

1. أوضاع المغرب الأوسط قبيل الفتح الإسلامي

قبل وصول المسلمين، كان المغرب الأوسط يعيش مرحلة من الاضطراب السياسي. فقد تمكن البيزنطيون بقيادة الإمبراطور جستنيان **الأول** من القضاء على دولة الوندال سنة 534م واستعادة شمال إفريقيا، إلا أن سيطرتهم لم تكن قوية إلا في المدن الساحلية والمراكز العسكرية، بينما ظلت المناطق الداخلية تحت نفوذ القبائل الأمازيغية التي حافظت على قدر كبير من الاستقلال.

وكان الوجود البيزنطي يقوم أساسًا على الحاميات العسكرية والتحالف مع بعض الزعامات المحلية، ولم ينجح في إقامة إدارة مركزية فعالة داخل المناطق الداخلية. كما أدى انتشار الضرائب والخلافات الدينية إلى إضعاف ارتباط السكان بالحكم البيزنطي، وهو ما جعل المنطقة مهيأة لتحولات جديدة مع وصول المسلمين.

2. بداية الفتح الإسلامي للمغرب (27هـ/647م)

بدأ الاحتكاك العسكري بين المسلمين وبلاد المغرب في عهد الخليفة عثمان بن عفان، عندما قاد عبد الله بن سعد بن أبي السرح حملة سنة 27هـ/647م انطلاقًا من مصر نحو إفريقية. واجه المسلمون القوات البيزنطية بقيادة الوالي جرجير في معركة سبيطلة، وحققوا انتصارًا مهمًا أدى إلى مقتل القائد البيزنطي وانسحاب قواته.

وقد أثبتت هذه الحملة ضعف السيطرة البيزنطية، لكنها لم تؤد إلى فتح دائم، إذ عاد الجيش الإسلامي إلى مصر بعد عقد اتفاق مع السكان، وكانت أهمية هذه الحملة أنها كشفت للمسلمين طبيعة

المنطقة، وأكدت إمكانية إخضاعها مستقبلًا، غير أن الفتن الداخلية التي عرفتها الدولة الإسلامية بعد مقتل عثمان بن عفان حالت دون استمرار التوسع.

3.عقبة بن نافع وتأسيس قاعدة الفتح الإسلامي

بعد استقرار الحكم الأموي، أعيد تنظيم حركة الفتح في المغرب. وفي سنة 50هـ/670م عُين عقبة بن نافع الفهري واليًا على إفريقية، وكان من أبرز قادة الفتوحات الإسلامية في الغرب. إذ أدرك عقبة أن استمرار الفتح يحتاج إلى قاعدة ثابتة، لذلك أسس مدينة القيروان سنة 50هـ/670م، لتكون مركزًا عسكريًا وإداريًا ودينيًا، ولم تكن القيروان مجرد معسكر للجيش، بل أصبحت لاحقًا أهم مركز إسلامي في المغرب، ومنها انتشر الإسلام واللغة العربية والعلوم الشرعية.

4. ولاية أبو المهاجر دينار على افريقية (55–62هـ/675–681م)

في حوالي سنة **55هـ/675م** عُزل عقبة وعين خلفا له أبو المهاجر دينار الذي اعتمد على سياسة ترتكز على التقارب مع القبائل الأمازيغية، وسعى إلى إدماج زعمائها في المشروع الإسلامي، كما واصل أبو المهاجر حركة الفتح الإسلامي غربًا، وتمكن من الوصول إلى مناطق المغرب الأوسط، وفتح الطريق أمام انتشار الإسلام بين القبائل.

5. ولاية عودة عقبة بن نافع الثانية (62–63هـ/681–683م)

عند عودته إلى إفريقية، استأنف عقبة مشروعه في حركة الفتح، فبدأ حملته باتجاه الغرب، فدخل مناطق واسعة من المغرب الأوسط، واخترق المناطق الداخلية، وأخضع عددًا من القبائل، ووصل في حملته الشهيرة إلى أقصى بلاد المغرب حتى المحيط الأطلسي سنة 62هـ/682م، مصطحبا معه في حملته أبو المهاجر دينار. لكن أثناء عودة الجيش الإسلامي من المغرب الأقصى، تعرض لهجوم مباغت في منطقة تهودة قرب بسكرة سنة 63هـ/683م، قاده الزعيم الأمازيغي كسيلة بمساندة بعض القوى البيزنطية حيث انتهت باستشهاد عقبة بن نافع ومعه عدد من قادته، كما استشهد أبو المهاجر دينار في هذه المعركة، وكانت هذه الحادثة من أكبر الانتكاسات التي عرفها الفتح الإسلامي، إذ انسحب المسلمون مؤقتًا من مناطق واسعة.

6. زهير بن قيس البلوي وإعادة النفوذ الإسلامي

بعد استشهاد عقبة، أصبحت الأوضاع صعبة على المسلمين، وتمكن كسيلة من السيطرة على القيروان فترة من الزمن. إلى أن أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان القائد **زهير بن قيس البلوي** لإعادة السيطرة على إفريقية. وتمكن زهير من مواجهة كسيلة وهزيمته في معركة مَمَّس سنة 69هـ/688م تقريبًا، واستعاد القيروان وأعاد الوجود الإسلامي إلى المنطقة. غير أن زهير لم يستطع تثبيت سلطته طويلًا، إذ قتل بعد ذلك أثناء مواجهته البيزنطيين، لكن حملته كانت خطوة مهمة لإعادة بناء القوة الإسلامية.

7. حسان بن النعمان ونهاية النفوذ البيزنطي ومقاومة الكاهنة

بعد القضاء على نفوذ كسيلة، تولى حسان بن النعمان قيادة الفتح في إفريقية بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان. حقق حسان انتصارات مهمة، كان أبرزها فتح قرطاج سنة 79هـ/698م، حيث أنهى الوجود البيزنطي السياسي والعسكري المنظم في شمال إفريقيا. لكن بعد سقوط البيزنطيين ظهر تحد جديد تمثل في مقاومة الزعيمة الأمازيغية ديهيا المعروفة بالكاهنة.

كانت الكاهنة زعيمة لقبائل جراوة في منطقة الأوراس، وتمكنت من توحيد عدد من القبائل الأمازيغية لمواجهة المسلمين. واستطاعت أن تلحق هزيمة بحسان بن النعمان، مما اضطره إلى التراجع مؤقتًا نحو إفريقية الشرقية. غير أن حسان أعاد تنظيم جيشه، واستفاد من تغير مواقف بعض القبائل التي رفضت استمرار الحرب، ثم تمكن من هزيمة الكاهنة وقتلها حوالي سنة 82هـ/701م. وبانتهاء مقاومة الكاهنة بدأت مرحلة جديدة من الاستقرار السياسي للمسلمين في المنطقة.

8. موسى بن نصير وتثبيت الفتح الإسلامي (85–91هـ/704–710م)

تولى موسى بن نصير ولاية إفريقية سنة 85هـ/704م، وكان دوره مختلفًا عن القادة السابقين، إذ ركز على تثبيت ما تحقق من الفتوحات حيث اعتمد موسى على سياسة تقوم على تنظيم الإدارة الإسلامية ونشر الإسلام بين السكان ، وإشراك الأمازيغ في الجيش واستمالة القبائل بدل إخضاعها بالقوة فقط.

وقد نجحت سياسته في تحويل القبائل الأمازيغية من قوة مقاومة إلى عنصر أساسي في الدولة الإسلامية، وأصبح عدد كبير منهم من جنود الفتح، ومن أبرزهم طارق بن زياد الذي قاد فتح الأندلس سنة 92هـ/711م، وبذلك اكتمل خلال عهد موسى بن نصير الانتقال من مرحلة الفتح العسكري إلى مرحلة بناء المجتمع الإسلامي الجديد.

وهكذا لم يكن فتح المغرب الأوسط مجرد توسع عسكري، بل كان بداية تحول سياسي وديني واجتماعي عميق، أدى لاحقًا إلى ظهور مدن وحواضر إسلامية كبرى، وأسهم في جعل الجزائر جزءًا فاعلًا من العالم الإسلامي.

9. انتشار الإسلام والتحولات السياسية والاجتماعية

لم يقتصر أثر الفتح الإسلامي على الجانب العسكري، بل أحدث تحولات عميقة في مختلف جوانب الحياة.

فعلى المستوى الديني؛ انتشر الإسلام تدريجيًا بين القبائل الأمازيغية، وأسهم العلماء والفقهاء والدعاة في ترسيخ مبادئ الدين الجديد. كما انتشرت اللغة العربية بوصفها لغة الدين والإدارة والعلم، دون أن يؤدي ذلك إلى اختفاء اللغة الأمازيغية، بل استمر التفاعل بين اللغتين في إطار ثقافي مشترك.

أما سياسيًا؛ فقد أصبحت المنطقة تابعة للدولة الأموية ثم العباسية، غير أن بعدها الجغرافي أدى إلى ظهور كيانات سياسية محلية اتسمت بقدر من الاستقلال. ومن أبرز هذه الدول؛ الدولة الرستمية في تيهرت (160–296هـ/776–909م) والدولة الأغلبية في إفريقية، ثم الدول الزيرية والحمادية في القرون اللاحقة، وقد أسهمت هذه الدول في ترسيخ مؤسسات الحكم والإدارة وتنظيم الجباية وتطوير القضاء، مما ساعد على استقرار الحياة السياسية.

أما اجتماعيًا، فقد أدى الإسلام إلى تقليص الفوارق القبلية وإرساء مفهوم الانتماء إلى الأمة الإسلامية، مع المحافظة على الخصوصيات المحلية. كما نشأت علاقات جديدة بين العرب والأمازيغ قائمة على المشاركة في الحياة السياسية والعسكرية والعلمية، وأصبحت القبائل الأمازيغية عنصرًا أساسيًا في الدفاع عن الدولة الإسلامية وفي حركة الفتوحات.

اقتصاديًا؛ شهد المغرب الأوسط ازدهارًا ملحوظًا نتيجة استقرار الأمن، وتطور الزراعة، وإحياء شبكات الري، وازدهار التجارة الصحراوية والمتوسطية، فأصبحت مدنه محطات رئيسية في المبادلات التجارية بين المشرق الإسلامي والسودان الغربي والأندلس.

10. نشأة الحواضر الإسلامية في المغرب الأوسط

أدى استقرار الإسلام إلى نشوء عدد من الحواضر الإسلامية التي تحولت إلى مراكز سياسية واقتصادية وثقافية كبرى.

- **مدينة تيهرت:** تعد من أهم المدن الإسلامية في المغرب الأوسط، واتخذها الرستميون عاصمة لهم سنة 160هـ/776م، وقد عرفت ازدهارًا اقتصاديًا كبيرًا بفضل موقعها على طرق التجارة، كما أصبحت مركزًا علميًا استقطب العلماء والفقهاء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، واشتهرت بمكتباتها ومدارسها.

- **مدينة أشير:** أسس زيري بن مناد مدينة أشير سنة 324هـ/936م في جبال التيطري، واتخذها الزيريون قاعدة لحكمهم قبل انتقالهم إلى القيروان. وقد تميزت بحصانتها الطبيعية وبموقعها الاستراتيجي، وأصبحت مركزًا إداريًا وعسكريًا مهمًا.

- **قلعة بني حماد:** أنشأ حماد بن بلكين قلعة بني حماد سنة 398هـ/1007م، واتخذها عاصمة للدولة الحمادية، وشهدت المدينة نهضة عمرانية كبيرة، حيث شُيدت القصور والمساجد والأسواق والخزانات المائية، وأصبحت مركزًا علميًا وثقافيًا بارزًا في المغرب الإسلامي.

- **بجاية:** نقل الحماديون عاصمتهم إلى بجاية سنة 483هـ/1090م، فتحولت إلى واحدة من أعظم المدن الإسلامية في الغرب الإسلامي، فقد ازدهرت تجارتها البحرية، وبرزت كمركز للعلوم والطب والفلك والرياضيات، واستقبلت علماء من المشرق والأندلس وإفريقية، حتى أصبحت من أشهر الحواضر العلمية في البحر المتوسط خلال العصر الوسيط.

- **تلمسان:** شهدت تلمسان ازدهارًا منذ الفتح الإسلامي، ثم بلغت أوج مكانتها في العهد الزياني ابتداءً من القرن السابع الهجري(الثالث عشر الميلادي)، حيث أصبحت مركزًا للتجارة الصحراوية والتعليم، واحتضنت عددًا من المدارس والزوايا والمساجد، وأسهمت في نشر الثقافة الإسلامية في الغرب الإسلامي.

11. مكانة المغرب الأوسط في الحضارة الإسلامية

أصبح المغرب الأوسط حلقة وصل بين المشرق والأندلس وإفريقيا جنوب الصحراء، وأسهم سكانه في نشر الإسلام في بلاد السودان، كما شاركوا في الفتوحات الإسلامية بالأندلس، وبرز العديد من العلماء والفقهاء والأدباء الذين أغنوا التراث الإسلامي، وأسهمت المدن الجزائرية في تطور العمارة الإسلامية والعلوم الشرعية واللغوية. كما شكلت الطرق التجارية العابرة للصحراء عاملًا مهمًا في نقل السلع والأفكار والثقافات، مما جعل مدن المغرب الأوسط مراكز للتبادل الحضاري بين إفريقيا وأوروبا والعالم الإسلامي.

المراجع:

- موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

- محمد بن عميرة، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2017.

- عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الإسلامي، مؤسسة شباب الجماعية للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية، 1999.

- عبد الحميد حسين حمودة، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي (من الفتح الإسلامي في قيام الدولة الفاطمية)، الدار الثقافية للنشر، مصر 2006.